

دور تصميم المسكن العربي القديم في تحسين بيئة الإنسان

الصادق قرفية
جمال الدين قسوم
قسم التهيئة العمرانية
جامعة باجي مختار - عنابة

الملخص

يهدف البحث إلى إيضاح الدور الذي تلعبه تصاميم المسكن في البلاد العربية قديماً في تحسين بيئة الإنسان، من خلال دراسة المميزات و التصاميم العمرانية والتعرض لمكوناتها البنوية والشكلية ومدى مقاومتها لمختلف العوامل، وكيف استطاع المعمار العربي أن يولي اهتماماً متميزاً في دراسة الجوانب المناخية والبيئية واختيار الحلول المناسبة لجعل الأنسجة العمرانية أكثر ملائمة رغم ضآلة الإمكانيات التكنولوجية. كما يتعرض البحث إلى نشأة وتطور المسكن العربي وكيف استطاع أن يوفق في استخدام مواد البناء ومعالجة العديد من المشاكل داخل المسكن وخارجه.

مقدمة:

تتركز المباني التراثية التي نحن بصدد التطرق إلى مميزاتا وتصاميمها المعمارية في المواقع القديمة للمدن العربية.

و لقد لعبت عدة عوامل في رسم الخريطة المعمارية للمدن العربية و لا سيما التراثية منها: البيئية و الظروف المناخية و الخبرات المحلية، و التقاليد و العادات الاجتماعية و الدينية، والأحداث السياسية و موارد البناء... حتى أن النمو الحضري للمدن العربية تأثر بالخريطة المعمارية للمدن و ذلك بمعالجته من تلك العوامل و وضع الحلول العملية لبعض المشاكل.

Résumé

Le but de cette recherche est de démontrer le rôle de la conception du logement arabe ancien afin de rendre meilleur l'environnement de l'homme. A partir de la conception des caractéristiques urbaines structurales, morphologiques et de ses composantes qui a résisté durant des siècles. Malgré le manque de moyen matériel et l'absence de matériaux qui répondent à ces difficultés, L'architecte arabe a réussi à adapter des solutions aux conditions climatiques et environnementales. Cette recherche est contrainte à l'amélioration de l'habitat arabe de l'époque, quant à la participation d'architecte à l'emploi de meilleurs matériaux qui répondent aux confort internes et externes de cette construction.

يمتاز الوطن العربي بمناخه المتطرف حيث يسوده مناخ حار و جاف في بعض مناطقه أو أقاليمه و بارد ممطر شتاء، و تسقط على بعضها أمطار إعصارية انقلابية و تسود البعض الآخر رياح شمالية غربية لمعظم أيام السنة و ذلك حسب ما تخضع له المدن العربية من أنماط مناخية.

كما تمتاز بعض مواقع المدن العربية بالإرتفاعات و الأخرى بالانحدار العام أو الانحدار التدريجي، و أدت الخصائص المذكورة للموقع القديم للمدينة إلى احتضان النسيج التراثي فيها، المشتمل على أحياء سكنية و عمائر خدمية كالأسواق و ما تبعها من خانات و حمامات و مبان دينية (كالجوامع) و ثقافية (كالمدارس).

حيث اتبع النسيج العمراني المتراس في أبنية المدينة المتمثل بتجميعها و ملاصقتها ببعضها بجدران مشترك و لا يفصل بينها في أغلب الأحيان سوى الطرق و الأزقة الضيقة المتعرجة.

ولقد عالج ذلك التكوين العمراني المتراس عدة أمور مناخية و اجتماعية و اقتصادية و إنشائية، فتجميع المباني ساعد على تقليل تعرض الأسطح الخارجية للمباني لأشعة الشمس صيفا، كما أدى إلى تضليل بعض المباني لما جاورها من مبان أخرى مما نتج عنه الحد من الطاقة الحرارية النافذة إلى داخل المبنى¹ كذلك فإن الخاصية المذكورة أدت إلى زيادة قوة المباني بفعل استناد بعضها البعض الآخر مما يطيل عمرها الزمني.

(1: نشأة و تطور المسكن العربي وفضاؤه الخارجي

كانت المساكن التي أنشأها العرب لم تزد عن كوخ أو كوخين من القصب بساحة داخلية محاطة على القصب، ثم بعد ذلك كانت الدور من الطين (طابوت مجفف في الشمس) ثم لم تلبث أن تطورت من الطابوت إلى المفخور (الآجر)² و ازدادت تطورا بتطور الحضارات حيث أصبح المسكن العربي القديم يحتوي على تخطيطات و تصميمات تتناسب مع الظروف الطبيعية و المناخية و يعمل كذلك على تنقية الهواء لأنه يعيق حركة الرياح المحملة بالأتربة و الرمال خلال

المدينة، و يقوم بالإحتفاظ بالهواء البارد المتجمع في طرقات المدينة أثناء الليل لفترات طويلة خلال ساعات النهار مما يساعد على تلطيف درجة الحرارة بتلك الفراغات صيفا، كما أنه يحد من سرعة الرياح الباردة شتاء، فيساعد على دفع المباني الواقعة على تلك الأزقة و الطرق³. وكذلك فإن ضيق الأزقة يقلل من تعرض الحيطان لأشعة الشمس المنعكسة من أرضيتها⁴.

و امتازت الأزقة و الطرق بكثرة القناطر المعقودة عليها، وقد حققت فوائد مناخية* كونها وسيلة لحماية المارة من تحتها من الحر الشديد صيفا و الأمطار شتاءا. «و الجدير بالذكر أن بعض الميسورين و أرباب الحكم كانوا يوصلون بين دورهم الواقعة على جانبي الطرق بممرات تحتها لأسباب دفاعية و اجتماعية و مناخية».

وبذا اختلفت النظرة في التكوين المعماري للمباني التي تحتويها عما هو في المباني البابلية و الإغريقية و الرومانية.. إذ أن هذه الحضارات كانت وفق أسلوب الشوارع المستقيمة و العريضة ذات التقاطعات المنتظمة و الساحات الواسعة... دون النظر إلى ما يفرضه المناخ على هذه المدن من تخطيط. و الذي لجأ إليه العرب بعد ذلك هربا من الظروف المناخية القاسية بجعل طرقهم ضيقة و متعرجة و مبلطة بالحجارة المضلعة، و هناك ساحات غير منتظمة الشكل تتفرع منها أزقة ضيقة يصعب في بعضها أن يمر رجلان بجوار بعضهما فالمساكن متقاربة حتى أن الأسطح تكاد تتلاصق لحمايتها من أشعة الشمس في فصل الصيف ... فضيق الممرات يجعلها مظلة طول النهار و تعرجها و انتهاؤها إلى نهاية مسدودة يؤديان إلى الحفاظ على الهواء البارد المتبقي من الليل إذ لو كانت هذه الممرات مستقيمة و مفتوحة لأدى ذلك إلى دفع الهواء البارد في طريقها من أول هبة من الرياح الساخنة.

(2) التجربة الفراغية عند العرب في بناء المساكن:

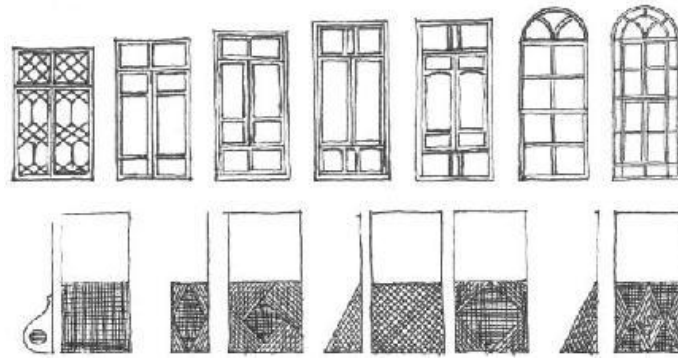
حقق المعمار العربي تجربة فراغية رائدة بتفريغ المنزل في الداخل فخلق بذلك فراغا رئيسيا داخليا اتصل من الأعلى بالفراغ الخارجي و انساب مع الفراغ

الداخلي لعناصر المنزل و اندمج معه في وحدة داخلية قوية رائعة حققت كثيرا من النواحي الجمالية و زادت من قدرة أنواع الفراغ الوظيفية.

ولقد تمكن المعمار من تحقيق الإستمرار بين الفراغات الداخلية المحددة بالاستعمالات المختلفة مع تغيير أشكالها و حجومها في تفاوت حقق عنصر المفاجأة و التغيير بصورة فعالة فراغات لا يكفي استيعابها بالنظر إليها من نقطة ثابتة بل تتغير الصورة التي تراها كلما تغيرت نقطة النظر أثناء التجوال في أجزاء المبنى⁵.

إن كثرة من العناصر المعمارية و مبادئ التصميم الفراغي التي طبقت في البيت العربي التقليدي لم تزل سليمة و معاصرة اليوم كما كانت بالأمس⁶.

و من كل هذا يظهر أن المعمار العربي استخدم كل قابلياته و مهارته في تصميم مسكنه و ذلك في تشكيل و تخطيط عناصره المعمارية و تنظيمها في الفراغ و تحديد حجومها الداخلية وفقا للغرض المنتفع بهذا الفراغ لأداء وظيفة معينة بغية الحصول على أكبر كفاءة للمبنى و توفير الراحة الجسمانية بدراسة العوامل المناخية و زوايا الشمس و حركة الهواء و تحقيق احتياجات الإنسان العربي المادية و الروحية مع إعطائه مختلف أنواع الاتصال بالفراغ الخارجي و مختلف الأجواء الداخلية و الراحة النفسية⁷.



الشكل 1. بعض النماذج الأصلية النوافذ الخشبية في الواجهات الخارجية لبيوت

2- (1) الفتحات الكبيرة:

لقد لجأ المعمار العربي إلى عمل الفتحات الكبيرة المطلّة على الفراغات الداخلية و الخارجية و ملء هذه الفتحات الكبيرة بواسطة مخمل يسمى مشربية مصنوعة من برافق الخشب الدقيقة بمقاسات محددة من حيث أقطار هذه البرافق ومن حيث سعة الفتحات التي بينها.

إن المشربيات المظللة لبعض الطرق و الأزقة هي الأخرى حلت مشاكل اجتماعية و مناخية. إذ ساعدت أهل الدار من الإطلال على الخارج دون أن يراهم أحد، و منعت الإشراف المتبادل في البيوت التي تتقابل طوابقها العليا، وخففت من حدة الضوء، و حرارة الشمس صيفا داخل البيت، و سمحت بإدخال كمية كافية من الضوء و الهواء إلى البيت، و ساعدت على تصحيح الطابق الأرضي غير المتجانس إلى وضع متجانس و أصبحت الآن فكرة الشناشيل سمة ليست مميزة للعمارة العربية فحسب، و إنما لكل عمائر الأجواء الحارة و التي طورها الأوروبيون و سماها المعمار الفرنسي (كوربوزيه) كاسرة الشمس و ادخلها في تصميم الأبنية الحديثة⁸.

و ربما لقانون المعماري الذي أمر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بإتباعه المتضمن جعل الشبابيك الكائنة في الطوابق العليا عالية لأسباب اجتماعية وراء ابتكار المشربيات في العهود اللاحقة⁹.

وتستند الشناشيل عادة إلى كوابل متعددة التحديدات، و هي من العناصر المعمارية التي وجدت في الطرز السابقة للإسلام كالطراز البيزنطي، و تطورت في العصر الإسلامي في مشرق العالم الإسلامي و مغربه حتى بلغت أوج تعقيدها و جمالها الفني.

فالمشربيات تحتوي على مكان كان يسمح بتخلل الهواء، و كذلك لدخول أشعة الشمس المتناثرة، فهي مكان رطب للإنسان تماما.¹⁰

2- (2) الفتحات الصغيرة:

وجود الفتحات الصغيرة في أعالي الجدران و الأسطح في معظم المباني ساعد على إدخال الضوء تعويضا عن الشبابيك التي انعدمت أو كادت في الحيطان السفلى لأسباب اجتماعية و أمنية، كما عملت على التخلص من الهواء الساخن المتجمع في أسفل سقوف الفراغات الداخلية وذلك بتحريكه قبل أن يحدث تأثير على درجة الحرارة الداخلية.

أما صغير الفتحات فقد ساعد على تقليل الطاقة الحرارية المتسربة داخل المبنى كما حد من قوة الابهار بالفراغات الداخلية صيفا.

و وجدت مثل هذه الفتحات في العهد الإسلامي المبكر في مدينة الفسطاط¹¹ و تمتد بأصولها إلى الطرز المعمارية السابقة للإسلام.

3) واجهات المباني:

الجدران الخارجية:

ترقد الجدران الخارجية المشيدة بتدابير معمارية على شكل تجاويف في طول ارتفاع الجدران اصطلح عليها بالدخلات و الطلعات وهذه المعالجة المعمارية المتمثلة في الدخلات و الطلعات لها فوائد تتركز أساسا في أمرين:
الأول: إعطاء قوة سائدة إضافية للجدران.

الثاني: تكسير حدة العوامل و المؤثرات الطبيعية من أمطار و رياح التي تؤثر و تفعل فعلها على السطح المبسط المكون لواجهات المباني، إذ تقلل هذه الدخلات و الطلعات بلا شك من هذه العوامل و أن لها فائدة كبيرة في تخفيف حدة أشعة الشمس على مساحة الواجهة و بالخصوص أثناء فصل الصيف ذي الشمس الوهاجة

4) استعمال مواد البناء:

لقد وفق المعمار العربي في استخدام مواد بناء ساعدت على معالجة كثير من المشاكل و لا سيما المناخية و الإنشائية فقد أكثر من استخدام الأحجار الكلسية غير

المهندسة و الجص في كافة المباني التراثية نظرا لمزاياها الطبيعية و لكثرتها في بعض المدن العربية.

(1-4) الحجارة الكلسية و الجص:

تعتبر من المواد التي تمتاز بإيصالها البطيء للحرارة مع قابليتها الكبيرة على الاحتفاظ بها، و لهذا ساعدت في معالجة الظروف المناخية القاسية في بعض المدن. فخاصية الإيصال البطيء للحرارة تعالج مشاكل المناخ صيفا حيث تكون درجة الحرارة مرتفعة وتبلغ أقصاها وقت الظهيرة و لفترة زمنية بعدها مما يسبب ضغوطا حرارية على المباني، و لذا فإن الأحجار تعمل على تأخير تسرب الحرارة إلى الداخل لوقت تبدأ درجة الحرارة بالخارج بالتدني.

أما خاصية الاحتفاظ بدرجة الحرارة مدة طويلة ساعدت على معالجة المناخ شتاء لأنها تعد مصدرا للإشعاع الحراري داخل المبنى و خارجه خلال الليل مما يحد من برودة الطقس¹².

و يمكن الحصول على حرارة معتدلة داخل المباني، هذا بالإضافة إلى كون الحجارة غير المهندسة تترك بينها بعض الفراغات أثناء بنائها مما يساعد على عملية العزل الحراري، ومن المزايا الأخرى لهذه الأحجار عدم مساعدتها على نقل الصوت بالدرجة نفسها الملاحظة في المواد الأخرى، كما أنها أقل قابلية للتمدد و التقلص جراء التبدلات الحرارية¹³. و تساعد على زيادة سمك الجدران أكثر من المواد الأخرى و الذي بدوره يسهل عملية العزل الحراري و يؤدي إلى متانة المباني لتستقيم طويلا و لعدة أجيال و هي من المزايا البارزة في العمارة العربية.

و الجدير بالذكر أن سمك جدران المباني من المزايا التي تمثلت في الطرز المعمارية القديمة و لا سيما في الجزائر والعراق و مصر و الجزيرة العربية و امتد إلى المباني العربية الإسلامية

(2-4) استعمال مادة اللبن:

اعتمد العرب على اللبن في تشييد المباني المختلفة لكونها مادة محلية متوفرة بالإضافة إلى أنها خير مادة عازلة، حيث البناء بهذه المادة قد أعطى حماية مناخية

و جوا معتدلا للإنسان، و لعل هذا الأمر جعله يعطي أهمية خاصة إلى البناء و يفكر تفكيراً جدياً في كيفية الحفاظ عليه¹⁴.

و من المعلوم أن اللبن لا يوضع على مقربة من المياه الجارية و الأماكن التي تتعرض باستمرار إلى الرطوبة.

و لقد عرف المعمار العربي كذلك أن اللبن إذا حمي بسقوف فإنه يستديم مدة أطول. فلذلك نراه يعمل على توفير واقيات بنائية مختلفة في نهاية الجدران من الأعلى لحجب تأثير الأمطار و الشمس و المؤثرات الأخرى على وجوه الجدران.

و عند استخدام اللبن في منشآت بنائية تحت الأرض فإنه لم يعول عليه كمادة أساسية بل اعتمدوا على تشييد الجدران و الأقواس الأساسية بمادة الحجر أو الطابوت. و في هذه الحالة استعمل اللبن كمادة لمليء الأماكن و الفراغات الواقعة بين هذه المنشآت الصلبة.

(5) المعالجات المعمارية للمسكن العربي القديم:

أدرك المعمار العربي أن جدران الأسوار السمكة معرضة إلى التشقق و الإنسلاخ من جراء عدة أسباب منها تفاوت درجات الحرارة و تسرب الأمطار إلى داخلها. و لتفادي هذا التخريب الأكيد فقد عزز المعمار الإنشائي العربي صنوف اللبن المكونة للجدران بطبقة من الحصير المعمول من القصب و هذا الحصير يطلّى عادة بمادة الزفت و أساسي لمنع تسرب الرطوبة و المياه إلى داخل الجدران من جهة و من جهة أخرى فإن هذه المادة تمنع وصول الحشرات و الديدان النافرة لمادة اللبن. كما استخدم الرمل بطبقة خفيفة تحت اللبن لمنع الرطوبة.

يتضح مما سبق تنوع المادة الأولية لبناء البيوت العربية القديمة و المؤلفة من الطين و اللبن و الحجارة و الكلس و الأخشاب.

و هذه المواد سبق للبناء الجزائري القديم أن استخدمها في بناء مساكنه، كما يتضح لنا ذلك في بعض المدن الداخلية والمدن الصحراوية حيث عرف استخدام اللبن على نطاق واسع في البناء بحجوم و أنواع متنوعة.

5-1) سطوح المباني السكنية:

5-1-1) السطوح المستوية

لقد فرض الجو المحلي للمنطقة على المهندس أن يعطي طرازاً مميزاً للسطوح المستوية لمساكننا القديمة، حيث يمثل سطح المسكن العربي القديم الجزء الوحيد من المسكن، بعد الفناء الداخلي المعرض لأشعة الشمس المباشرة ولم يصمم هذا الجزء من الهيكل البنائي للمسكن كظاهرة معمارية تركيبية فقط، بل جاء لكي يصبح قطاعاً معيشياً، يستعمل للنوم أثناء الليل خلال فصل الصيف الذي يحتل عادة فترة طويلة من السنة.¹⁵

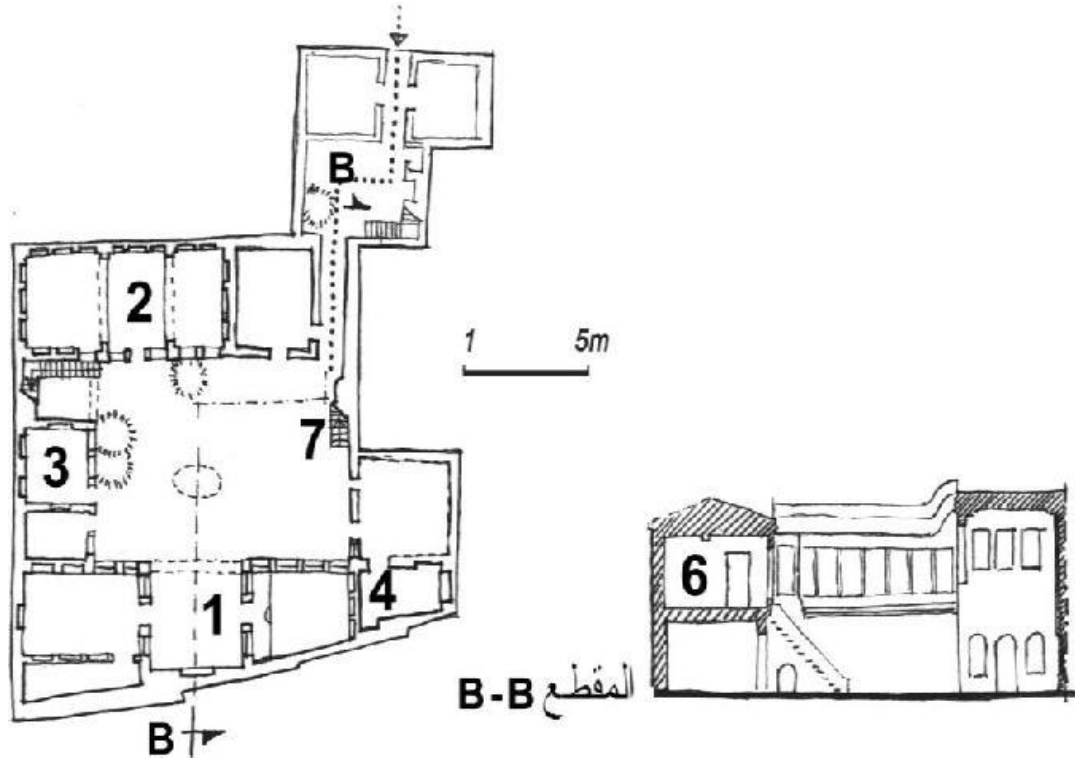
5-1-2) السقوف المقببة

امتازت معظم الأبنية التراثية في المدن العربية بالسقوف المقببة للحد من الحرارة المتسربة داخل المباني (بسبب عدم تعرض سطحها المنحني بالكامل لأشعة الشمس خلال ساعات النهار صيفاً، خلافاً لما يحدث بالنسبة للسطوح الأفقية و بالتالي يقل الضغط الحراري على الفراغات الداخلية للمبنى و يحميها من التقلبات الجوية في الخارج) كما أن حركة الهواء تنشط ما بين الجزء المظلل الداخلي و الجزء الخارجي المشمس منها مما يساعد على التخلص من الهواء الساخن الملاصق للجزء المشمس و يعمل على التخلص من مضاعفاته الحرارية باستمرار¹⁶

كذلك فإن هذا الأسلوب المقبب للسطوح يساعد على تخفيف القوى الضاغطة على الحيطان و الأسس التي تركز عليها، و تكون أكثر تماساً من السقوف المستوية.

5-2) الفناء الداخلي

يشكل الفناء وحدة هامة و أساسية في تصميم البيت العربي القديم بل هو نواة تصميم مساقط معظم العمائر على اختلاف أنواعها¹⁷.



الشكل 2. أمثلة لعقارات ذات باحتين

و لهذا الجزء من البيت أهمية كبيرة منها تلطيف حدة الضوضاء كما كان بمثابة مرشح للهواء الذي كثيرا ما يحمل الغبار و الأتربة، و يساعد على تخفيف ضوضاء الشوارع و الطرق وكان يختزن الدفء في الشتاء إذا أغلقت الأبواب و الفتحات الخارجية لمنع مرور التيارات الهوائية، و في موسم الصيف يساعد على تلطيف شدة الحر كما أنه يبعد سكان البيت عن أعين المارة.

كما أنه أيضا يساعد على تحسين البيئة المناخية في هذا الجزء من المسكن و يشكل محلا لإجتماع العائلة مما يساعد على ترابطهم الإجتماعي و توحيد الأسرة مع بقية الأسر ضمن نطاق المجتمع، و هذا ما يجب ادخاله في تخطيط المدن المعاصرة¹⁸.

و تطل على الفناء الداخلي ايونات الجلوس بحيث يرتفع الإيوان بارتفاع البيت و يعد بمثابة فناء مسقف يستخدم في المناسبات الخاصة للعائلة و ذلك لتلطيفه درجات الحرارة في الصيف بفعل التيارات الهوائية المتحركة و قلة الضغط الحراري بينما الغرف الجانبية تستخدم من قبل العائلة للراحة و النوم وفي حالة

وجود أكثر من جناح للبيت تبنى الأجنحة بصورة متقابلة عادة لمعالجة مشاكل المناخ و تفضل الجهتين الشمالية و الجنوبية فالأجنحة الشمالية تكون شتوية لأنها تتعرض لأشعة الشمس في حين توافق الأجنحة الجنوبية فصل الصيف لأنها تتفادى شمس العصر الشديد¹⁹.

وقد لازم الفناء معظم المباني في أغلب الطرز المعمارية القديمة و لا سيما التي سادت في الوطن العربي و استخدم لنفس الأسباب.

3-5) الأروقة

من أقسام المسكن أيضا الرواق، و رواق البيت ما أطاف به و تقام الأروقة في البيوت في مقدمة الأواوين التي سبق التحدث عنها و لقد استخدمت بصورة عامة وقاية للأبنية التي تتقدمها في الحر الشديد صيفا و البرد القارص و الأمطار شتاءا. و ترجع ظاهرة استخدام الأروقة في العراق إلى عصور بعيدة حيث وجدت أروقة في بعض بيوت قرية حسونة²⁰ ثم تمثلت بعد ذلك في البيوت السومرية²¹ و العهود التالية.

4-5) السرايب

استخدمت السرايب من قبل ساكنين البيت لاستعمالها للقلولة. و السرايب تتفاوت في عمقها و تتباين مساحتها تبعا للغرض التي أنشأت من أجله و تميزت بعض السرايب الواقعة تحت الأجنحة و مرافق البيت بارتفاع سقفها قليلا عن مستوى الفناء بغية استحداث بعض الشبايبك لغرض التهوية و الإضاءة. كما استخدمت السرايب لخزن الحبوب و المواد الغذائية و الوقود و مزاوله بعض المهن كالحياكة و بعضها كمربط للحيوانات.

أما السرايب التي تستخدم للقلولة فعادة ما تزود بملاقف هوائية (باد كير) تصل بينه و بين السطح أو الطابق العلوي لتلطيف درجة الحرارة، و ملاقف الهواء استعملها الآشوريين و البابليين في العراق القديم²² كما استخدمها المصريون القدماء، و تطالعون في العصر الإسلامي في قصور سامراء²³، فهي أي ملاقف الهواء « تسمح لأكبر كمية من الهواء بالدخول إلى المسكن، حيث أدرك المهندس

العربي بأن الهواء لا يكفي لوحده لتلطيف جو مسكنه، و الهواء يجب أن يكون متحركاً و بسرعة معتدلة، إذ أن مساعدة تكوين حركة للهواء في داخل المسكن تؤدي إلى شعور الساكن بالانتعاش بحكم سرعة عملية تبخر العرق من مساماته الجسمية، و هذه الملاقف تعمل حتى عندما يكون الهواء ساكناً بطريقة معاكسة لطريقة تأثير المدخنة».²⁴

(6) مبدأ التكامل بين الإطار السكني والجانب الوظيفي):

بعد ما سبق التعرض إلى مكونات المسكن العربي القديم ارتأينا التطرق إلى تبين عناصر التكامل والتوافق بين الاستخدام السكني و الإطار الوظيفي، لا سيما وأن التنظيم المجالي للمدينة العربية، يعكس فلسفة خاصة وذلك من خلال توطين جل الوظائف في الجزء المركزي وذلك لأسباب تتلخص أساساً في جعل المجال المركزي، نطاق اجتماعي يلتقي فيه الأهالي كما أنه يبرز العامل الأمني للحفاظ على خصوصية المدينة وذلك من خلال استبعاد الأجانب من التوغل في المدينة. وإن كان هذا التنظيم والتناسق يعكس العادات والتقاليد والجانب الديني، وفي هذا الصدد نجد أن كل المباني التي تخدم الجانب الوظيفي، قد اعتمدت في إنشائها على تقنيات تقليدية لاسيما مواد البناء.

تتفاوت مساحة الدور التراثية في المدينة العربية و عدم انتظام مواقعها على الأزقة و يرجع السبب إلى انعدام السيطرة البلدية أو لكونها غير واضحة في القرون السابقة هذا بالإضافة إلى التلاعب الذي كان يمارسه المتنفذون بأوضاع العقارات في مناطق سكنهم، و بمرور الزمن فقد تغير التنظيم الداخلي للدور السكنية القديمة، اضم إلى ذلك أن الترابط الاجتماعي يجعل من غير المستطاع أن يترك السكان الفائضون محلهم، بل يحاول سكونة المحلة استيعاب الزيادة بواسطة بيع جزء من عقاراتهم إلى أبناء جلدتهم و على مر الزمن و بتكرار هذه العملية فإن التصميم و المساحة الأصلية لدورهم و أملاكهم سوف تتغير باستمرار و ينتج عنها أشكال غير منتظمة، و لهذه الأسباب فإن التنظيم الداخلي للدور السكنية في

المدن التراثية لم يأخذ شكلا هندسيا منسقا على امتداد الطرق و الأزقة التي تقع عليها وإن ساعدت على حل مشكلة اجتماعية.

و الجدير بالذكر أن الطرقات و أراضي البناء لم تكن متعرجة في المدن التي أسست في عهد الخلفاء الراشدين و العهد الأموي، و لا سيما الأمصار كالبصرة و الكوفة و الفسطاط و القيروان²⁵، بل كانت وفق التخطيط الهندسي الذي أوصى به الخليفة عمر بن الخطاب، حيث كانت الشوارع التي تفصل خطط المدن متوازية، عرض الرئيسية منها أربعون ذراعا و المتوسطة عشرون ذراعا و الأزقة سبعة أذرع، كما أن النظام المتراس هو السائد²⁶ و ربما كان ذلك لأسباب أمنية و اقتصادية و اجتماعية²⁷.

وتمتد أصول التجمع المتراس في المباني و التي تتخللها الأزقة الملتوية إلى الطرز السابقة و لا سيما في الجزائر و مصر و آسيا الصغرى.

1-6 الأسواق:

تتوطن بمركز المدينة وتمثل المجال الحيوي والاقتصادي على مستوى المدينة²⁸ وقد نشأت الأسواق في المدن العربية القديمة منذ فترة طويلة و كان الرسول (ص) قد أنشأ سوقا للمدينة قريبة من دورها، وكانت هذه السوق بداية لتطور عمراني استمر بعد ذلك في المدن الإسلامية في عصورها المتتابعة.

كما أن هذه الأسواق تمتد من المركز إلى المناطق السكنية بشكل مترابط وفق نظام متسلسل و متدرج ليقدّم أفضل الخدمات للسكان²⁹. كذلك التصميم المعماري للأسواق يتميز بالامتداد الطولي المتوازي لوحدات متماثلة من الدكاكين المتلاصقة على جانبي طرق و ممرات ضيقة و ملتوية كانت تعلوها سقوف عالية مقببة ذات فتحات جانبية للتهوية و الإضاءة. و قد استعاض عنها مؤخرا بسقوف معدنية مسطحة أو ذات هياكل جملونية و ارتفاع السقوف عالج مشكلة مناخية و هي تخفيف حدة الحرارة صيفا³⁰، كما أن فكرة بناء الأسواق المغطاة التي نشأت في مدننا القديمة تجمع فيما بينها طابعا واحدا يتميز بالشوارع الضيقة المسقوفة لاستعمال السابلة كما هو الحال في أسواق بعض المدن العربية كالجزائر وتونس

وسوريا ومصر و تحمي هذه الأسواق المارين من وهج الشمس المحرقة في الصيف و الأمطار في الشتاء³¹.

و في مدننا القديمة نجد بجانب الأسواق المسقفة أخرى خالية من السقوف و أن عمل ذلك يكون مقصودا حيث أن تعريتها يكون ضروريا كسوق الصقارين و سوق الصاغة و ذلك لأن طرق النحاس و دق المسامير و استعمال النار و العقاقير المثيرة للدخان كل ذلك يجعل هذه المهن شاقة للغاية بل مستحيلة لو كانت أسواقا مغطاة³²

6-2 الحمامات والينابيع:

يعتبر الماء عنصرا هاما تتسم به المدينة القديمة ويبرز من خلال تواجد الينابيع والحمامات، بالإضافة إلى تواجد النفورات ضمن الفناء الداخلي للدور لتلطيف الجو من خلال رفع درجة الرطوبة³³.

أما بالنسبة للحمامات العامة فقد وجدت في منطقة الأسواق لاستخدامها من قبل روادها حيث غلبت على الحمامات الخاصة لعدم وجود إسالة للماء آنذاك و لحاجتها إلى وقود لا يمكن تهيئته بسهولة. وقد صممت بشكل يضمن الانتقال التدريجي من البرودة إلى الحرارة و بالعكس شأنها في ذلك شأن معظم الحمامات المتمثلة في الطرز القديمة و مثيلاتها في البلاد العربية الإسلامية الأخرى. فاشتملت على محل (خلع الثياب)، ثم المسبح و حجرة تفصل بينهما الغاية منها عدم الانتقال المفاجئ من البرودة إلى الحرارة و بالعكس.

و تغطي جميع أقسام الحمامات القباب و يتميز المسبح بتكونه من ساحة وسطية تحف ثلاثة أو اربع مقببة في كل منها ثلاثة أحواض بالإضافة إلى محل الدواء و تغطي كل ذلك قبة مشتركة فيها شبابيك عالية لإدخال الضوء.

و غالبا ما يستخدم في بناء الحمامات الحجر و الجير لأن موادها تتحمل الماء و بذلك يتناسب التخطيط مع مواد البناء في أداء وظيفة الحمام التي تعتمد على الماء³⁴

واقع حال المدينة القديمة لعنابة:

ارتأينا الإشارة إلى عينة تعكس واقع هذه المدن و تعكس التحديات التي تواجه لحفاظ على خصائصها كمدينة عربية ألا و هي، المدينة القديمة لمدينة عنابة.

فبالنسبة لتكوينها العمراني نجدها تتشكل من مباني متوسطة العلو بالأسقف من القرميد الأحمر، تتصف المساكن بكثافتها المتوسطة، تتكون معظمها من مباني متوسطة تتوزع على مسالك و دروب مرصفة بالحجارة و التي أصبحت حاليا تعاني من التقهقر لغياب صيانة التهيئة اللازمة.³⁵

إن احتكاك الحضارات المختلفة أدى إلى امتزاج طرزها التي يمكن تلخيصها كما يلي:³⁶

الطرز الأول: الطراز البربري، العفوي، الذي بدأ مع بداية نشأة المدينة.
الطرز الثاني: و هو الطراز الأندلسي المربع و يتمثل في جامع سيدي أبو مروان.
الطرز الثالث: و هو الطراز التركي المستدير الانسيابي المزخرف و يتمثل في جامع الباي الواقع بساحة 19 ماي 1955.

و لقد تم امتزاج طرز العمارة بحكم الدين و العادات المتقاربة، و انصهرت في بوتقة واحدة، فتأثرت مساكن المدينة بالطراز المعماري التركي، الذي تزاوج مع الطراز البربري، فظهر التأثير واضحا في انتظام الشكل المربع إلى جانب التأثيرات المركبة على الوحدات المعمارية التي امتزجت مع الطراز الأصلي و الطراز الأندلسي و أصبحت المدينة القديمة ذات طراز واحد ممتزج هو الطراز العربي الإسلامي.

وتجدر الإشارة إلى أن الخصوصية العمرانية والمعمارية للمدينة القديمة في مكونات المباني التي تتشكل أساسا من³⁷:

* المدخل - الباب: مزخرفة و نقوش اعتماد النحاس و الحديد و بأشكال مقوسة يفصل البيت عن العالم الخارجي.

* السقيفة - مجال يتواجد عند مدخل المبنى، يستخدم لاستقبال الضيوف و فسخ المجال لأهل البيت، يتواجد به منبع الماء و يتميز بمناخ ملائم.

* المجلس - بيت الضيوف: مجال مخصص لاستقبال الغرباء و الضيوف و أحيانا لعقد المجالس.

بالرغم من المدينة القديمة ضمن مدينة عنابة تعد تراث عمراني ومعماري يستوجب الحفاظ عليه إلا أنه وبفعل الإهمال ونقص الخبرة وقلة عمليات الترميم ونقص التشريعات فإنها أصبحت تعاني من التقهقر والتدهور بشكل بارز مما يستدعي إعادة النظر.

صورة 01: تقهقر المباني في ظل غياب عمليات الترميم



7) الاستنتاجات و التوصيات

إن أهم الاستنتاجات التي يمكن التوصل إليها مع أهم التوصيات هي كما يلي: مما تقدم يتضح لنا بأن المميزات و التصاميم المعمارية التي تمثلت في المباني التراثية لعبت دورا كبيرا في النمو الحضري، لأنها أخذت بعين الاعتبار كافة الأمور المؤثرة في حياة السكان و لاسيما المناخية منها و عالجت المشاكل الناجمة عنها و وضعت الحلول اللازمة لها.

حيث تكيف المعمار العربي مع طبيعة البيئة فاختر المخططات التي تتناسب مع الظروف المناخية لمقاومة الرياح و الرمال و الأتربة. و اختار مواد بنائية

قادرة على مطاولة الظروف الطبيعية و لهذا فلا عجب أن نجد بعضها معمولاً بها حالياً.

كذلك يمكن الانتفاع بالميزات و الخصائص العامة للمسكن العربي القديم في الوقت الحاضر رغم ما حدث من تغير في مواد البناء و تطور في النواحي الاجتماعية و الاقتصادية و ما حدث كذلك من اكتشافات علمية و تجهيزات حديثة كالتهوية الهوائية، رغم ذلك ما زالت تستخدم بعض مواد البناء في وقتنا الحاضر، و المساكن العربية القديمة لا تزال صالحة مؤدية خدمة سكنية و ملبية لاحتياجات الكثير من الأفراد رغم قدمها.

أيضاً نجد بعضها ما زالت تستعمل كالسرايب و النظام المتراس و الأروقة و أجنحة الاستقبال المفصولة عن بقية أجنحة الدار و مشتملاته و الحديقة التي تتقدم البيت أو تدور حوله والتي تقوم مقام الفناء التراثي و تؤدي بعض وظائفه و كثرة استخداماته الأحجار الكلسية و الجص في الملاط.

بالإضافة إلى تأمين التهوية و الإضاءة الطبيعية و توفير البيئة الصالحة لحياة معيشة الإنسان التي يمكن ملاحظتها في تجميع الأبنية بشكل متراس و ما ينتج عنها من ممرات ملتوية و تقليل التعرض لأشعة الشمس للأسطح الخارجية و تطبيق فكرة الفناء الداخلي و أحواض المياه.

و كان اهتمامهم كبيراً في دراسة الجوانب البيئية و المناخية و الحلول التي أوجدها الأسلاف في هذا المضمار مثل استعمال المواد الرخيصة المتوفرة محلياً كالطين المجفف بالشمس من كل ذلك نرى أن الأحياء العمرانية القديمة كانت أكثر ملائمة للمناخ من المشاريع المعاصرة كما توفرت فيها الأجواء المناسبة للمعيشة بشكل أفضل وهذا يمكن تقديره إذا أخذنا بنظر ضالة الإمكانيات التكنولوجية التي كانت متوفرة عند أسلافنا لمعالجة الظروف المناخية السائدة كالتدفئة و التبريد.

و في النهاية نؤكد على المحافظة على المسكن العربي القديم و احترام خصوصيته طبقا للعادات و التقاليد الاجتماعية التي كانت تزخر بها مجتمعاتنا القديمة مع محاولة توظيفها في الأحياء المعاصرة لنتميز عن باقي المجتمعات

المراجع

- 1- محمد الخولي، المؤثرات المناخية و العمارة العربية، جامعة بيروت العربية 1975 ص46.
- 2- صالح أحمد علي، خطط البصرة، مجلة سومر/ مجلد 8، بغداد 1952 ص302.
- 3- محمد الخولي، مصدر سابق ص46.
- 4- حيدر كمونة، مصدر سابق ص14-15.
- 5- حيدر كمونة، الأسلوب الأمثل للمحافظة على التراث المعماري في المدينة العراقية ص5.
- 6- حيدر كمونة، الأسلوب الأمثل للمحافظة على التراث المعماري في المدينة العراقية ص7.
- 7- محمد الخولي، المصدر السابق ص34.
- 8- حميد محمد حسن، البيت العراقي في العهد العثماني، رسالة ماجستير (غير منشورة قدمت لجامعة بغداد 1982 ص305).
- 9- فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية ماضيها و حاضرها و مستقبلها، ط1، الرياض 1982 ص9
- 10- حيدر كمونة ، مصدر سابق ص61.
- 11- فربال مصطفى، البيت العربي في العراق في العصر الإسلامي، بغداد 1983 ص16..
- 12- محمد الخولي، مصدر سابق ص30.
- 13- حسن الباشا، تاريخ الفن في العراق القديم، ط1، القاهرة 1956 ص53.
- 14- طارق عبد الوهاب مظلوم، البيئة و المعمار في بلاد وادي الرافدين و استعمال مادة اللبن، مركز احصاء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد/ الدورة القطرية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب ص301.
- 15- حيدر كمونة مصدر سابق ص62.
- 16- محمد الخولي، مصدر سابق ص301.
- 17- صلاح حسين العبيدي، كلية الآداب، جامعة بغداد (م/1) أنظمة المدينة العربية ص7.
- 18- حيدر كمونة، أهم العناصر التخطيطية و المعمارية لمكونات المدينة العربية القديمة ص103.
- 19- حيدر كمونة، أهم العناصر التخطيطية و المعمارية لمكونات المدينة العربية القديمة ص103.
- 20- حميد محمد حسن، البيت العراقي في العهد العثماني، رسالة ماجستير، جامعة بغداد 1982 ص302.
- 21- حميد محمد حسن، مصدر سابق ص237.

- 22- فؤاد سفر، حفريات تل حسونة، سومر، 1945 ص34.
- 23- حميد محمد حسن، مصدر سابق ص304.
- 24- حيدر كمونة، مصدر سابق ص61.
- 25- فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية ماضيها و حاضرها و مستقبلها، ط1/الرياض 1982 ص83.
- 26- عيسى سلمان و آخرون، العمارات العربية الإسلامية في العراق(مدن و مساجد) بغداد 1982 ص22.
- 27- يعتقد أن النبي (ص) جعل الحد الأدنى لعرض الشارع 10 أقدام بحيث يمكن لحيوانين محملين أن يسلكا الطريق في وقت واحد، و قد طبق الخليفة عمر هذا المقياس على شوارع البصرة و الكوفة كما أستعمل في بغداد أيضا بينما جعل عرض الشارع حوالي 20 قدما و كذلك حددت مسافة قدرها 100 قدم للوحدات السكنية بين الشارع و المبنى.
- 28- Claude Chaline, Les Villes du Monde Arabe, édition collection géographique, année 1998,pp.189.
- 29- حيدر كمونة، مصدر سابق ص62، ص6، ص11.
- 30- فبرنر كاسكل، الأخيفر، ترجمة د. خالد اسماعيل علي، سومر م25 سنة 1969 ص17.
- 31- حيدر كمونة، مصدر سابق ص62، ص6، ص11.
- 32- حيدر كمونة، مصدر سابق ص62، ص6، ص11.
- 33- Pierre Laborde, Les Espaces Urbains dans le Monde, collection fac. géographique, année 1989,pp.239
- 34- محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مصدر سابق ص18.
- 35- مخطط شغل الأرض للمدينة القديمة عنابه 2001.
- 36- مديرية التعمير لولاية عنابه 2006.
- 37- تحقيق ميداني 2008.
- 38- صيد أحمد سفيان، التوسعات العمرانية للمجمع العنابي، رسالة ماجستير 2000 جامعة قسنطينة.